٦
المُسْلِمُ مَعَ أُقْرِبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ

الأَرْحــام:

لا يقتصر برّ المسلم على والديه وزوجه وأولاده، بل يتعدّاهم إلى أقاربه وذوي رَحِمه، فيشمل هؤلاء جميعاً ببرّه وإحسانه وحسن صلته. والأرحام: هم الأقارب الذين يرتبطون مع الإنسان بنسب، سواء أكانوا يرثونه أم لا يرثونه.

حَفَاوَةُ الإِسْلَامِ بِالرَّحِم:

ذلك أن الإسلام حَفِيَ بالرحم حَفـاوةً ما عـرفتها الإنسـانية في غيـره من الأديان والنظم والشرائع، فأوصى بها، ورغّب في صلتها، وتوعّدَ مَنْ قطعها.

وليس أدلَّ على حفاوة الإسلام البالغة بـالرّحِم من تلك الصـورة الرائعـة التي رسمها رسول الله ﷺ للرّحِم، تقوم بين يدي الله في الساحة الكبيـرة التي خلق الله فيهـا الخَلْق، فتستعيذ بـه من قـطيعتهـا، ويجيبهـا الله عـزَّ وجـل إلى سُؤْلها، فَيصِلُ مَنْ وصَلَها، ويقطع مَنْ قَـطَعها، وذلـك في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ تَعالَى خَلَقَ الخَلْقَ، حتّى إذا فَرَغَ مِنْهُمْ، قامَتِ الرَّحِمُ فقالَتْ: هـذا مَقامُ العـائِـذِ بِـكَ مِنَ القَـطيعَـةِ. قـالَ: نعَمْ، أمـا تَـرْضَيْنَ أنْ أصِـلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْـطَعَ مَنْ قَـطَعَـكِ؟ قـالَتْ: بَلَى، قـالَ: فـذلِـكِ لَـكِ»، ثم قــالَ رسـولُ الله ﷺ: «اقْـرأُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾(١).

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم تَتْرَى مؤكدة منزلة الرّحِم في الإسلام، حاضة على الإحسان إليها، وإرهاف المشاعر للإحساس بوشائجها وأداء حقوقها، وتوقّي هضم تلك الحقوق أو خدشها أو مسّها بظلم أو أذى، محذّرة من الإساءة إليها. ومن هذه الآيات الكريمة قولُه تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾(٢).

فقد أمر بتقوى الله، وثنّى بالأرحام، إعظاماً لها، وتأكيداً على توقيرها، والحنين دوماً إلى نداها وظلّها.

وحسب الرّحِم أهمية ومنزلة في شعور المسلم الصادق أن الأمر بصلتها وبرّها أتى في أكثر الآيات الكريمة بعد الإيمان بالله والإحسان بالوالدين:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾(٣).

ثم يقول بعد قليل:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾(٤).

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ. . .﴾(٥).

ومن هنا تأتي مرتبة ذوي القربى في البرّ بعد الوالدين، كما حدّدها

---

(١) متفق عليه.
(٢) النساء: ١.
(٣) الإسراء: ٢٤.
(٤) الإسراء: ٢٦.
(٥) النساء: ٣٦.

التوجيه القرآنيّ الحكيم، متدرّجاً من الأعلى إلى الأدنى في سلّم العلاقات الإنسانيّة، ثم يمتد البرّ من ذوي القرابة ويتّسع نطاقه، وينسحب خيره على المحتاجين جميعاً في الأسرة الإنسانية الكبيرة، وهذا ما يوائم طبيعة النفس البشرية التي هي أميل إلى البدء ببرّ الأقربين، ويلائم منهجَ الإسلام العام في تنظيم المجتمع الإسلامي، إذ جعل التكافل الاجتماعي يبدأ من محيط الأسرة، ثم يمتد إلى دائرة الأقربين، ثم ينساح في محيط الجماعة، في سهولة ويسر، وفي تراحم ورضا وودّ، يجعل الحياة حلوة جميلة شائقة لائقة ببني الإنسان.

وصلة الرحم من المبادىء الإسلامية الأولى، والأصول الكبرى التي طلع بها هذا الدين على الدنيا منذ اليوم الأول الذي صدع فيه رسول الله ﷺ بالدعوة، مبيّناً أسسها، موضّحاً معالمها؛ فهي إذاً من أبرز المعالم وأوضحها في شريعة هذا الدين، يشهد لذلك حديث أبي سفيان الطويل مع هرقل، إذ سأل أبا سفيان: فماذا يأمرُكمْ به نبيُّكم؟ فأجابَه: يقولُ: «اعْبُدوا اللَّهَ وحدَهُ، ولا تُشْرِكوا به شيئاً، واترُكوا ما يقولُ آباؤُكمْ، ويأمُرنا بالصَّلاةِ، والصِّدْقِ، والعَفافِ، والصِّلةِ»[1].

فقد جاءت صلة الرحم في عداد المعالم الكبرى لهذا الدين الحنيف، من توحيد لله، وإقامة للصلاة، والتمسّك بالصدق والعفاف. ومن هنا كانت صلة الرحم من أبرز مميّزات هذا الدين التي تعرض على أسماع السائلين عنه لأول مرة.

وفي حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه الطويل المشتمل على جملة من قواعد الإسلام وآدابه، قال فيه: دخلتُ على النبي ﷺ بمكة، يعني في أول النبوّة، فقلتُ له: ما أنتَ؟ قالَ: «نبيٌّ؟ فقلتُ: وما نَبيٌّ؟ قالَ:

(١) متفق عليه.

«أَرْسَلَني اللَّهُ»، فقلتُ: بأيِّ شيء أرسَلَكَ؟ قالَ: «أَرْسلَني بصلَة الأَرْحامِ، وكَسْرِ الأَوْثانِ، وأنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ...»[١].

وواضح أن الرسول الكريم في شرحه الموجز لأهمّ مبادىء الإسلام وقواعده في هذا الحديث قدّم صلة الأرحام، فذكرها في طليعة تلك المبادىء والقواعد، وهذا يوحي بما لها من كبير المنزلة، وعظيم المكانة، في منهج هذا الدين الذي أنزله الله رحمةً للعالمين.

ومن هنا استفاضت النصوص التي تحضّ على صلة الرحم، وترغّب فيها، وتحذّر من قطيعتها، وتتوعد جافيها.

فعن أبي أيوب الأنصاري أن رجلاً قالَ: يا رسولَ الله، أخْبرْني بعمل يُدْخِلُني الجنّةَ، فقال النبيُّ ﷺ: «تَعْبُدُ الله ولا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وتُقيمُ الصّلاةَ، وتُؤْتي الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ»[٢].

فصلة الرحم تأتي مع عبادة الله وتوحيده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في سياق واحد، فهي إذاً من أجلّ الأعمال الصالحات التي تضمن لصاحبها الجنة، وتقيه من النار.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لهُ في رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ لَهُ في أَثَرِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٣].

فهي إذاً بركة على الواصل في رزقه، وبركة عليه في عمره، تزيد في ماله وتنمّيه، وتطيل في أجله وتبارك فيه.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

وكان ابن عمر يقول: «مَنِ اتَّقَى رَبَّهُ، وَوَصَلَ رَحِمَهُ نُسِيءَ في أَجَلِهِ، وثَرَى مالُه، وأحبَّهُ أهلُهُ»[١].

وكما رأينا صلة الرّحِم بركةً على صاحبها في رزقه وعمره، ورحمةً من الله تتغشّاه في دنياه وأخراه، ومَجْلَبَةً لمحبة الناس له، والثناء عليه، فإننا نجد بالمقابل قطيعة الرّحِم شؤماً على صاحبها وبلاءً، ومَقْتاً له من الله والناس، وبُعْداً له عن الجنة في دار القرار.

وحسب قاطع الرّحِم بلاءً وشقاءً وحرماناً أن يسمع قول الرسول ﷺ فيه: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ»[٢].

وحَسْبُه شُؤْماً وتَعْساً وضَلالاً أن الرحمة لا تتنزّل على قوم هو فيهم، كما في الحديث الذي رواه البيهقي في شعب الإيمان:

«إنَّ الرَّحْمَةَ لا تَنْزِلُ على قَوْمٍ فيهمْ قاطِعُ رَحِمٍ»[٣].

ولهذا كان الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه لا يرضى أن يدعو الله في مجلس فيه قاطع رحم؛ لأنه يحول دون نزول الرحمة واستجابة الدعاء؛ فقد قال في أحد مجالسه عشية يوم خميس، ليلة الجمعة: «أُحَرِّجُ[٤] على كل قاطع رحم لَما قامَ من عندنا، فلم يقم أحد، حتى قال ثلاثاً. فأتى فتى عمّةً له قد صَرَمها منذ سنتين، فدخل عليها، فقالت له: يا ابن أخي، ما جاء بك؟ قال: سمعت أبا هريرة يقول: كذا وكذا، قالت: ارجع إليه فسَلْهُ: لِمَ قال ذاك؟ قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٤) أي أُضيِّق وأُصِرّ.

«إنَّ أَعْمالَ بَني آدَمَ تُعْرَضُ على اللهِ تبارَكَ وتعالَى عَشِيَّةَ كُلِّ يَوْمِ خَميسٍ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، فَلا يُقْبَلُ عَمَلُ قاطِعِ رَحِمٍ»[١].

إن المسلم المرهف الحسّ، المتطلّع إلى رضوان ربه وسلامة آخرته، لَتهزُّه هذه النصوص من الأعماق؛ إذ تقرّر أن قطيعة الرحم تحجب الرحمة، وتردّ الدعاء، وتحبط العمل، وإنه لَبلاءٌ كبير يحيق بالمرء أن يدعوَ فلا يُستَجابَ له، ويعملَ فلا يُرْفَعَ له عمل، ويفيءَ إلى رحمة ربه فتبتعد عنه. ومن هنا لا يُتَصَوَّر أبداً أن يكون المسلم الحق قاطع رحِم في يوم من الأيام.

إن قطيعة الرّحِم ذنبٌ لا يبوء بإثمه مسلمٌ استنار قلبُه بهَدْي الإسلام، وتفتّحتْ نفسه على طاعة الله ورضوانه؛ ذلك أن قطيعة الرّحِم من الذنوب التي يعجل الله بها العقوبة، بل إنها في طليعة الذنوب التي يأخذ أصحابَها بِها في الدنيا قبل الآخرة، كما جاء في الحديث الشريف:

«ما مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَى أنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصاحِبِهِ العُقوبَةَ في الدُّنْيا ــ مَعَ ما يَدَّخِرُ لَهُ في الآخِرَة ــ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ والبَغْيِ»[٢].

فقطيعة الرّحِم والبغي صِنْوان، ولذا قرنهما رسول الله ﷺ في حديثه؛ ذلك أن قطيعة الرّحِم من الظلم، وأيّ ظلم أشدّ من تقطيع الوشائج، وفصم عرى المحبة، وتجفيف ينابيع الوداد؟!.

ولقد مثّل رسولُ الله ﷺ هذا الظلم يقع على الرّحِم بالقطيعة، فقال:

«إنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ[٣] مِنَ الرَّحْمنِ، تَقُولُ: يا رَبِّ، إنِّي ظُلِمْتُ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ورواه أحمد في مسنده.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح.

(٣) أي قرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

يـا رَبِّ، إنّي قُـطِعْتُ، يـا رَبِّ، إنّي... فيُجيبُهـا: ألا تَـرْضَيْنَ أنْ أَقْـطَعَ مَنْ قَطَعَكِ وأَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ؟»[١].

لقـد أعْلَى الله من شأن الـرّحِم، إذ جعلها شِجْنَـة من اسمـه الـرحمن، وكرّمها، إذ اشتقّ اسمها من اسمه، فقال:

«أنا الرَّحْمنُ، وأنا خَلَقْتُ الرَّحِمَ واشْتَقَقْتُ لهـا مِن اسْمي. فَمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَها بَتَتُّهُ»[٢].

وفي ذلك إشارة للمسلم المرهَف أن واصلها ينعم في ظـلال رحمة ربّـه الـوارفة النـديّة البَـرود، موصـولاً منعَّماً مكـرَّماً، وأن قـاطعها محـروم من تلك الظلال، مَبْتوتٌ شقيٌّ مُهان.

المُسْلِمُ وَاصِلٌ رَحِمَهُ حَسَبَ هَدْيِ الإِسْلامِ:

ومن هنا كان المسلم التقي الواعي واصلاً رَحِمـه، لا تلهيه الـدنيا، ولا المـال ولا الزوجـة والولـد، عن تفقّد ذوي رحِمـه وقرابتـه، وبرِّهم وإكـرامهم ومعونتهم، وهو في ذلك يتبع هَدْي الإسلام الحنيف الـذي نظّم هـذه الصلة، فجعلها متسلسلة حسَب الأهمية والقرب، فبدأ بـالأم، ثم بالأب، ثم بـالأقرب فالأقرب؛ فقد جاء رجل إلى النبـي ﷺ، فقال: يا رسول الله، مَنْ أحقُّ بحُسْن الصُّحْبَة؟ قالَ: «أُمُّكَ، ثم أُمُّكَ، ثم أُمُّكَ، ثم أَبوكَ، ثمّ أدْناكَ أدْناكَ»[٣][٤].

وإن للمسلم في برّه ذوي القربـى لَأَجْرَيْنِ، أجرَ القرابة وأجرَ الصدقـة، وهـذا أدعى أن يتيمّم في عطائـه ذوي رحِمه، إن كـانوا بحـاجـة إلى المـال،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٣) أي الأقرب إليك فالأقرب.

(٤) متفق عليه.

فيغنم بذلك الأجرَيْن عند الله، وخفقَ القلوب بحبه عند رحِمه وذوي قُرْباه، وهذا ما حبّب به الرسول الكريم ﷺ ودعا إليه في الحديث الذي روته زينب الثقفيّة امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«تَصَدَّقْنَ يا مَعْشَرَ النِّساءِ ولَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ». قالَتْ: فرجعتُ إلى عبد الله بن مَسْعود فقلتُ لهُ: إنّكَ رَجلٌ خَفيفُ ذاتِ اليَدِ[١]، وإنّ رسولَ اللهِ ﷺ قَدْ أمَرَنا بالصَّدَقَة، فَأْتِهِ فَاسْأَلْهُ، فإنْ كانَ ذلك يُجْزِئُ عَنّي[٢]، وإلاّ صَرَفْتُها إلى غَيْرِكُمْ. فقال عبدُ اللهِ: بَلِ ائْتيهِ أنتِ، فانطلَقْتُ، فإذا امرأةٌ منَ الأَنْصار ببابِ رسولِ اللهِ ﷺ حاجَتي حاجَتُها، وكانَ رسولُ الله ﷺ قد أُلْقِيَتْ عليْهِ المَهابَةُ، فخرَجَ علَيْنا بِلالٌ، فقُلْنا له: ائْتِ رسولَ الله ﷺ فأخْبِرْهُ أنّ امْرأَتَيْنِ بالبابِ تَسْأَلانِكَ: أتُجْزِئُ الصّدقةُ عنهما على أزْواجِهما وعلى أيْتامٍ في حُجُورِهما[٣]، ولا تُخْبِرْهُ مَنْ نحنُ، فدخلَ بلالٌ على رسولِ اللهِ ﷺ، فسألهُ، فقالَ لَهُ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ هُما؟ قالَ: امرأةٌ من الأَنصار وزَيْنَبُ. فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أيُّ الزَّيانِب هِيَ؟» قالَ: امرأةُ عبد الله، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «لَهُما أَجْرانِ، أجْرُ القَرابةِ وأجْرُ الصَّدَقَةِ»[٤].

ويقول الرسول ﷺ: «الصَّدَقَةُ على المِسْكينِ صَدَقَةٌ، وعلى ذي الرَّحِمِ ثِنْتانِ: صَدَقَةٌ وصِلَةٌ»[٥].

ولقد كان الرسول ﷺ يؤكد أفضلية برّ الأقربين في كل فرصة تسنح، وفي كل مناسبة تمرّ. فلما نزلت الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٦]، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله

---

(١) أي قليل المال.

(٢) أي دفع الصدقة لكم.

(٣) أي في ولايتهما.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٦) آل عمران: ٩٢.

تبارك وتعالى يقول: ﴿لَنْ تَنالوا البِرَّ حتّى تُنْفِقوا مِمّا تُحِبّونَ﴾. وإنّ أحبَّ مالي إليَّ بَيْرَحاءُ[١]، وإنّها صَدَقَةٌ لله تَعالى أرْجو بِرَّها وذُخْرَها عندَ اللهِ، فضَعْها يا رسول الله حيثُ أراكَ اللَّهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بَخٍ[٢]، ذلكَ مالٌ رابِحٌ، ذلكَ مالٌ رابِحٌ! وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرَى أنْ تَجْعَلَها في الأَقْرَبِينَ»، فقال أبو طَلْحَة: «أَفْعَلُ يا رسولَ اللهِ، فَقَسَّمَها أبو طَلْحَة في أقاربه وبَني عَمِّه»[٣].

وأوغل رسول الله ﷺ في قلب الزمن، موصياً بالرَّحِم المتحدّرة عَبْرَ القرون والآماد، حينما أوصى بشعب مصر في الحديث الذي رواه مسلم:

«سَتَفْتَحونَ مِصْرَ، فإذا فَتَحْتُموها فأَحْسِنوا إلى أهْلِها، فإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً ورَحِماً، أو قالَ: ذِمَّةً وصِهْراً». وقال العلماء في شرحه: الرَّحِم التي لهم: كون هاجر أم إسماعيل منهم. والصهر: كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم.

فيا لَلْوفاءِ والبِرِّ، ويا لَلنَّدَى الإنساني يمتد ويتسع حتى يشمل الذراري المتحدِّرة من هاتين الرَّحِمَيْنِ الكريمتين على كرّ السنين والأحقاب!.

فلا بدع إذاً أن يوليَ المسلم التقي الواعي ذوي رَحِمه اهتماماته كلها، وأن يقبل على برّهم وصلتهم والإحسان إليهم إقبالَ الربيع الخصب الجواد المعطاء.

يَصِلُ أَرْحَامَهُ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُسْلِمِينَ:

ويسمو الإسلام في سماحته وإنسانيّته، إذ يوصي بصلة الرّحِم ولو كان الأرحام من غير المسلمين، ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن

---

(١) بيرحاء: حديقة نخل.

(٢) بَخٍ: كلمة تقال للإعجاب بالأمر وتفخيمه.

(٣) متفق عليه.

العاص رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ جِهاراً غير سرّ يقول:

«إنّ آلَ أبي فُلانٍ لَيْسُوا بأوْليائي، إنّما وليّي اللَّهُ وصالِحُ المُؤْمِنينَ، ولكنْ لهمْ رَحِمٌ أَبُلُّها بِبِلالِها[١]»[٢].

ولما نزل قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٣]، دعا رسولُ الله ﷺ قُرَيْشاً، فاجتَمعوا، فعَمَّ وخصَّ، وقالَ: «يا بني عَبْدِ شَمْسٍ، يا بَني كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذوا أنفسَكمْ من النّار، يا بَني مُرَّةَ بنِ كعْبٍ أنقِذوا أنفسَكمْ من النّار، يا بَني عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذوا أنفسَكُمْ مِنَ النّار، يا بَني هاشِمٍ أَنْقِذُوا أنفسَكمْ مِنَ النّار، يا بني عَبْدِ المُطَّلِب أَنْقِذُوا أنفسَكمْ منَ النّار، يا فاطمةُ أَنْقذي نفسَكِ من النّار؛ فإنّي لا أَمْلِكُ لكمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، غيرَ أنّ لكمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلالِها»[٤].

إن ندى العاطفة الإنسانية لا ينقطع من قلب المسلم، بل يتسرّب منه إلى ذوي القربى بَلّةٌ من ريّ البِرّ والعطف، ولو كانوا على غير دين الإسلام، ومن هنا كان تعبير الرسول الكريم: «غيرَ أنّ لكمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلالِها» من درر البلاغة العربية؛ إذ شبّه الرَّحِم بالأرض تَنْدَى بالصلة فتثمر المحبة والصفاء، وتجفّ بالقطيعة فتنبت البغضاء والجفاء، والمسلم الحق آلف مألوف، يحبه الناس جميعاً، إذ يرون فيه مكارم الأخلاق مجسّدة حيّة ناطقة.

ولهذا لم يجد عمر رضي الله عنه حَرَجاً من أن يُهدي حُلّةً بعث بها إليه الرسول ﷺ إلى أخ له من أمه مشرك[٥].

(١) أي أَصِلُها بالمعروف اللائق بها. والبِلال: الماء، شبه صلة الأرحام بالنداوة والريّ.
(٢) متفق عليه.
(٣) الشعراء: ٢١٤.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه البخاري.

لقد سبق أن رأينا حضّ الإسلام على برّ الوالدين، ولو كانا مشركَيْنِ، وها نحن أولاء نرى حضه على برّ ذوي القربى، ولو كانوا غير مسلمين أيضاً، وهذا دليل على سماحة هذا الدين وإنسانيته، وليس هذا ببدع في دين، خاطب الله رسولَه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[١] وقال رسوله: «إنّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاقِ»[٢].

يَفْهَمُ صِلَةَ الرَّحِمِ بِمَعْناها الوَاسِعِ:

وصلة الرّحِم عند المسلم الحق الواعي هَدْي دينه لا تكون ببذل المال فحسب، بل هي أعمّ من ذلك وأوسع، إنها تكون ببذل المال للعفاة[٣] من ذوي القربى، وتكون بالزيارة التي توطّد أواصر القرابة، وتوثّق وشائج المحبة، وتمدّ في التوادّ والتراحم، وتكون بالتناصح والعون والإيثار والإنصاف، وتكون بالكلمة الطيبة، والوجه الطلق، واللقاء الحسن، والابتسامة الودود، وتكون في غير ذلك من أعمال الخير التي تفجّر ينابيع الحب في القلوب، وتبسط رواق الألفة والتراحم والتكافل على ذوي الرحم والقرابة، ولهذا جاء التوجيه النبوي العالي حاضّاً على هذه الصلة في أبسط أشكالها وأقلّها كلفة ومؤونة بقوله:

«بُلُّوا أَرْحامَكُمْ ولَوْ بِالسَّلامِ»[٤].

يَصِلُ رَحِمَهُ وَلَوْ لَمْ يَصِلوهُ:

والمسلم الحق يصل ذوي رحِمه، ولو لم يَصِلوه؛ ذلك أن واصل الرحم المبتغي بصلته هذه رضوان الله عزّ وجل، والتخلّقَ بالخلق الإسلامي السامي

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ.

(٣) أي الفقراء.

(٤) رواه البزّار عن ابن عباس، وطرقه يقوّي بعضها بعضاً.

لا ينتظر على صلته هذه أن يُكافَأ بمثل فعله، فهو واصل دوماً لرحمه وذوي قرابته، وَصَلوه أم لم يَصِلوه، ضارباً بخلقه الإسلامي الإنساني الرفيع المثلَ الأعلى على صياغة الإسلام للإنسان، صياغة تجعله إنساناً راقياً سامياً، في تعامله مع أقربائه وذوي رحمه في جميع الأحوال. وقد أكّد الرسول ﷺ هذا المعنى في المسلم الحق الصادق إذ قال:

«لَيسَ الواصلُ بالمُكافِىء، ولكنّ الواصِلَ الّذي إذا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها»[١].

وجاء الهَدْيُ النبوي الكريم يعزّز خلق الحلم والصبر والعفو والسماحة في نفس واصل الرحم الذي يصل قرابته، فلا يقابلونه إلّا بالقطيعة والجفاء والإساءة، إذ قرّر أن الله مع مَنْ يصل الرّحِم فلا يُجازَى على صلته بمثلها، ورسم صورة مخيفة للإثم الذي يلحق الجفاة المنكرين للمعروف المقطّعين للأرحام؛ فقد جاء رجل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحْلُمُ عنهم ويجهلون عليّ، فقال:

«لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فكَأَنّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ[٢]، ولا يَزالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ ما دُمْتَ على ذلِكَ»[٣].

أرأيتَ إلى واصل الرّحِم الصابر على جفاء وقطيعة ذوي قرباه كيف أمدّه الله بظهير من عنده يعينه عليهم، ويملأ قلبه بالصبر على أذاهم، ويثبته على الاستمرار في خلقه الإنساني النبيل؟ وكيف شبّه الرسول الكريم ما يلحق

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي الرّماد الحار.

(٣) رواه مسلم.

أولئك العتاة الجفاة المسيئين من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، جزاء ما اقترفوه في حق هذا المحسن الكريم الودود من تقصير وإساءة وجفاء؟

من هنا كان المسلم الحق واصلاً رَحِمَهُ على كل حال، متطلِّعاً دوماً إلى مرضاة ربّه في هذه الصلة، مترفّعاً أبداً عن الجهالات والحماقات والإساءات، تبدر بين الحين والحين من ذوي قرابته، معرضاً عن الصغائر والتفاهات التي تشغل الصغار من الناس، وتوغر منهم الصدور. فالمسلم التقي الواعي أكبرُ من أن يصغي لهذه الجهالات والحماقات والصغائر والتفاهات، فتؤثر على علاقاته بذوي رَحِمه وبرِّه بهم، وهو يسمع قول الرسول الكريم:

«الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تقولُ: مَنْ وَصَلَني وَصَلَهُ اللَّهُ، ومَنْ قَطَعَني قَطَعَهُ اللَّهُ»[1].

---

(١) متفق عليه.